عرس في قرية

لكرم ملحم كرم

أوشك الفجر ان يزحزح لثامه لما تثاءب جبل الباغي وفرك عينيه ، والنعاس لا يبرح يهيم به ، وتلفت الى ما حوله ، ونهض الى مداسه الشاوي بجانبه فانتعله ، وتأبط عصاه الغليظة كأنها جذع سنديانة هرمة ، وشك في وسطه خنجره المسنون ومزماره الرقيق النغم ، واندفع الى الحظيرة الساهدة على خطوات منه يلكز برأس عصاه ظهور خرفانه الجاثمة في مبارکها يجتاز رحبة الليل على هدهدة النهار

ووثبت الخرفان كجيش روّع في هدنته . وأطلق جبل الباغي قطيعه في معابر الكروم والليل يلملم أذياله . ومعابر الكروم وعرة المسلك بصخورها وأخاديدها ، نهاشة بأشواكها . تعلو كالسلالم من السفح الى القمة ، ولكنها سلالم معوّجة خانها الانسجام دون أن يذهب بروعة الفطرة المتألقة في اضطرابها الصبيح وكأنه ربيب طفل في حيرة الزحوف

وفيما يتوقل الراعي في الشارف طامت عيناه على بيت انقعد صدر تلة نهداء . بيت حقير أغبر طرّقت هامته هالة من الكلس الابيض فبدا كشيخ معمّم زاهد في دنياه . وكلما رقي جبل صاعد نجبل صرفه عن غنمه الخرمان بمقلتيه على ذلك البيت الاعزل كالناسك في صومعة جرداء . وما أضحت الخرفان على منبسط الجبل من قبالة أنظار راعيها حتى انتهرها جبل ولم تكن بحاجة الى النهرة ، وهي انتهرة الصعدة ، غير ان الراعي شاء أن تعلو صيحته انذاراً لمن يشرون في المنزل الساجي الغفلان

وتمخض المنزل بالجواب . فقذفت منه ناقدة شقّت عن رأس أشقر الشعر كعناقيد الخرنوب ، أبيض الجبين كسلجة الصباح . فرنمش جبل الباغي ووقف كالمفتون أمام رؤيا تتمخض بالاغراء . وانبعثت الابتسامة الوطنى في شفتيه ، فتمتم بلسان الخجول التقي المنار : تحية الصبح الجديد أيتها الروح ، فردّ له التحية صوت انديّ كالطل : أسعد الله صباح جبيل !

وقابلت التحية تحية والابتسامة ابتسامة واجتهد الراعي في أن يطيل الوقوف إمعاناً على النشوة الطارئة . وغالب ذهنه على كلمات توفر له مرماه فقال : أيكون لريقكم برد الماء ؟

فأجاب الصوت الندي الابرين مكانه على الصخرة يناضح بثوب الثلج .

ومشى الى المنبطحة قدماً أهيف يتشقق ساقين بضتين تتناهى فيهما جمال الصياغة فصارت

نزوة الحب في واعي القطيع ودفعته الى المصطبة يسبق الى الابريق القدّ الأهيف المشوق الساقين . قال : خلي عنك ، أنا أعرف طريقي الى ابريق الماء !

على ان اليدين قبضتا معاً على ذلك الابريق . يد جميل ويدها . وحاولت صاحبة القد الأهيف المشوق الساقين ان تفلت الفك فلم تسعفها قواها ويد جميل تضغط يدها كالكلابة العمية . قالت وهي تجاهد في الافلات : أوجعتني . أتظل هابتاً ؟ .. متى تعرف الجدّ ؟

فاتسعت عيناه ينكر ما ترميه به وقال بايمان العابد ذي التقى : ناهدة ! مواقفي منك لا تستروح غير الجد الناصع . اني لأوبأ بنفسي أن أكون في مودتك هابتاً وأنت عندي الكون . . . الحياة ! . تشددت في الخلاص من ضغط راحته القنية الاعصاب ، الخشنة ، وهي تقول : دعني والحقّ يقطيعك . قطيعك أولى مني بك !

فغاض صدره بالقول العفيّ : القطيع وصاحب القطيع فداك !

ورشح بالصدق قلبه ومقوله ونظراه . وأدركت انه جاد لا هازل فعضت شفتيها ان اسكت لئلا يسمعوك . أبوها وأمها وعمتها في المنزل . فقال بحفوة : لست أبالي أحداً . أنا أشتهي في حبك الفضيحة !

فأعلنت بصيحة تترجح بين الغضب والرضى ويغلب عليها الخفوت : اسكت ، اسكت !

— لن أسكت الآ وقد سمعت منك المعاهدة على الولاء . أيستطيع جميل أن يعقد عليك غده ؟

وغرز عينيه في عينيها مستطلعاً ملحّاً . فدمدمت بقوة روم الانفجار وتخشاه : اسكت ، اسكت . أخاف أن يسمعوك ، أن يبصروك . دعني أفلت يدي !

فجبهها بالم وحدة : سأرفع صوتي حتى لا يبقى في القرية من لا يسمع . وسأظل قابضاً على يدك حتى تراني كل عين . أتكونين لجميل ؟ . أجيبي . أتريدينني زوجاً لك ؟ . وعلا في النزل وقع أقدام فاستعطفت ناهدة جميلاً أن أفلت يدي . فلفت شفتاه بضجيج كاو . أجيبي !

فهالها ان يفتضح أمرها ورفت عيناها بالميثاق الغليظ . فطهّر جميل وأفرج عن راحتها . أطلّ أبوها من الباب فأمال الراعي بالابريق على فمه يتضلع الظمأ فضحك الاب وقال مازحاً : صباب أنت منذ طلوع الصباح بكل هذا العطش يا جميل ؟ . هل تعشيت خروفاً ؟

فكفّ الراعي الفتى عن الشرب وقال بامياً : ما حيلتي في ابريقكم وهو يغريني ابداً بكم العذب ؟ والتفت الى خرفانه فاذا هي تتابع المرتقى فقال وقد ثمل فرحة عذراء . أن ألحق بخرفاني ، فعفواً عني !

ووثب الى خرفانه السوانح في طريق القمة وقد ودع ناهدة بنظرة وأباها بومضة من . وما لبث ان تعالى نغر مزمور يلقي في آذان الصباح توليد شجو الراعي وانسياب القطيع

في الفسحة يقرض الكلأ الطري ويميل حيناً بعد حين على دوالي الكرمة يستنبيحها وراعيه لاهٍ عنهُ بهواه المجنّح ومزماره المغرّيد

ونظر اليهِ فارس مقصود ، والد ناهدة ، في وثبته الى القطيع فقال : جميل الباغي فتى عامر القلب . فالدنيا لديه ضحكة وأغرودة وكأس رويّة !

وفارس في عهد شبابه انتفض فيه هذا المرح الخصيب . على ان السنين فلّت من غلوائهِ وان تكن أبقت على عزيمته . فلا يبرح ذلك الباني القمح العابد ربه وجبله وحريته ، الحريص على التقاليد . عاش أجداده وأبوه في هذا البيت الأعزل المعصوب الجبين بالعمامة البيضاء ، وهو يأبى الاّ أن يعيش فيه مثلهم دون ان يفكر في بناء جدار . فما ورث عن أبيهِ سيورثهُ لمن يليهِ . فالوزنات الخمس تظل لديه خمس وزنات لا تنقص ولا تزيد

والعيش لم يكن يضيق بفارس مقصود . حقوله توفر له الكفاف . فالمال وان لم تزخر بهِ يداه لم ينضب لديه معينه . حبوبه من ارضهِ . وزيته من دوّارة الزيتون في المرج الاخضر . والحلوى من كروم العنب والتين . وفي كل عام يشتري خروفاً ويعلفه ليذبحه في مطلع الخريف ذخيرة للشتاء الجهوم . فالقرية حين يدهمها الثلج تتنكر للذبائح وتنعم بالدهن المعفّى في القوارير . ومع يقين فارس مقصود ان القناعة كنز لا يفنى تشهّى ابو ناهدة امتلاك الثروة الدفاقة ليسلو لبعض الزمن حياته الرتيبة الوزن والقافية . وعرف الغيرة وهو يبصر نفثة من اناء قريته تعود من المهجر وفي راحتها حفنات النضار . وفكر في الاقتداء بها ولكن بعد الاوان . فلم يبق في النصاح زيت يرجع على ما بلي منهُ بالنفاد

غير ان ما اصيب فيه فارس مقصود بالحرمان سيمنع عن ابنته اذاه . ابنته ناهدة خميرة البيت ومعقد الرجاء . فهي وحيدته وقد بخل عليه الزمن بسواها من الفتيات . وناهدة في نظيرة فتيات القرية وجه القماش . زهرة لم تحفل بمثلها الغمة ، وعطرة أطيب شذاً من كل هاتيك الرياحين

وفي سبيل ناهدة لم تنقطع الخرزان عن الالتفاف صباح مساء حول البيت الاعزل الجاثم في مفرق الربوة . ولم يبرح جميل يسأل عن الابريق الغافي على المسطبة ويُسكر بشدو مزماره ، المخمور انغام ، الاشجار والتلال والاودية والقطيع

وكم خرج في المساء على ناهدة حياها بما مالت في جولة نهاره يده فيحمل اليها أقراط الخصر المائل لها الغمام تشهياً ، وعناقيد العنب المنظومة كالقصائد العبد ، فاتنين الملوّن الباذخ فيه بشبه قلبه ، والمرمور الاحمر كالاشتهار المخمورة فكروز الدنه ، والحضر المحمر اللدن

وحث الراعي الفتى عن الغار لعذوله عنه . فتمثل يوم الاربعاء يوم يعقد له على ناهدة

مقصود ، وأعدّ له العدة . فكان يبيع خرفانه بثمن ربيح ويشتري سواها . ويجز صوفها ويعرضه على الغزالين وربات المنازل لحشو الوسائد والفرش ويتقاضى البدل ويحشده في جرة تنبطن الأرض . فالجرة في القرية بيت المال وملجأ الدينار

وحدّث الفتاة عن مناه . سيشتري منزلاً في القرية وينقطع عن رعي الغنم . فحسبه الاتجار بالخرفان والنحوم ، حتى اذا ما تزوج فلا تحجل به ناهدة في معرض الفخار

وشعر بأن الحب على هناءته قيد صليب . الاّ انهُ راضٍ به على قسوته . ولكن ثمة من لم يرض . ففي القرية من طاب له تكدير الصفاء . والناس كتلة من حسد وغيرة . فكانت وشوشات على خلوة تلتها مجاهرات ملء الاسماع . أين جميل من ناهدة وهو راعي غنم ؟

والسابت هذه القراصم الى اذن فارس مقصود . وفارس متشامخ غضوب . فرقص شارباه ورقت عيناه وصاح بنفرة : لا وأبيكم ، ليس لجميل عندنا لقمة !

وتسلق الى الصومعة والحقد في صدره والجهامة في أساريره . وتناول الابريق الحالم على المصطبة وحطمهُ في عربدة نكراء . فأسرعت ناهدة تتبين أثر القصقصة . وما بصرت بأبيها حتى تولاها جمود راعب . هل جنّ أبوها ؟

وشاءت الكلام تروم استيضاحاً . فخنق أبوها في صدرها كل نقمة وقد علا صوتهُ ناخماً دفاق الزبد . فضحتني يا ملعونة الطلعة بمسايرتك جميل الباغي . ولكن أباك ليس ممن يتامون على الهضيمة . انت تعلمين مبلغ نقمتي . والله لأقطعنّ رقبتك اذا عدت الى مخاطبة جميل بكلمة ، بإيماءة ! وكشر عن نواجذه الكوالح . وهدّد بقبضة يده . فوقف الدم في عروق ناهدة . أي انقلاب طرأ على أبيها فأمال من جانب الى جانب الكفة الراجحة ؟

قال الأب وهو لا يبرح في فورة الغضب : جميل لا يليق بك . ان هو الاّ راعي غنم . والقرية كلها تلومني في رضاي عن مساقطتكما الاحاديث . فامنعي عني الأنياب العضاضة وقاطعيه . أنتِ خلقت لمن هو أعلى قدراً !

فعزّ عليها أن يموت حبها الطري دون أن يقوم من ينعاه . وأحست نفسها في معرض الدفاع عنه فقالت متجاوزة تهديد أبيها : ما بك تبدلت ؟ . . . كنت عمّا لجميل راعياً في مكانته . . فتنجر كالاملاقة : أنا ؟ . . . لأقطعنّ عمرك . . ادخلي المنزل نقيت الحيبة . لا تلقي ثانية واحدة أمامي . فليس يخر عليك ما يكون مني في ثورة الغضب .

وغضبته تخيف . وعند نائلة منها الخبر اليقين . فلا تزال تذكر الفتاة كيف قبض ذات يوم على غدائر أمها ورمى بالسكينة من السطح الى حقول التوت . ولو لم تقع على أكداس الشعير لتحطمت أضالعها . ولكن حظها تقع فيها مهوت على موطن رمق

وليت تدري كيف خطر هذا الأمر ببالها وقد أطالت اليها الوقوف. فخاطبها ان تهيم امتها بالجديد وتخرج على تقاليد السلف ، فأهوى بحدقة الجرن على المرآة ونثرها شظايا براقة وناهدة لا تملك الجرأة حتى على البكاء

والآن وقد غار ثائره فانها لتخشى الاصطدام به لئلا يناله منها ما يؤذيها فدخلت المنزل وهي ترتجف كورقة الخريف الساقطة الهمة حيال الريح . وشكت أمرها الى أمها . فاكتفت الأم بأن تنوح هذا كل ما تستطيع !

قضت ناهدة ليلة موصولة النشيج . فأرمد عينها حكم أبيها عليها . ودبت الى النافذة ترقب جميلاً يزفها اياه مبسم الصباح . وتلألأ القش في المنحدر يسوق قطيعه الى القمة وعيناه على الكوة الناطة منها ابنة فارس مقصود . وانبسط البشر في قسماته . سيرى الفتاة . فتألمت ناهدة للنكبة المنقضة وساءلت نفسها : أتبدو لعينيه ؟

وأوجعها ان تقلقهُ وما درج الى مأثم . ولكن ألا يرصدها أبوها ؟ . . وتنهدت جزعاً وهي تفكر في هذا الأب الغشوم ، محطم المنى الابكار . وكان جميل قد اندفع الى المصطبة ينادي الفتاة . فكادت ناهدة تجيب . غير ان أباها ظفر الى الباب يشقه وجرجر بصوت نفور كصرير المنشار : ماذا تريد ؟

فرحت النبرة الخشنة اذن جميل . ووثب فوراً الى ذهن الفتى ان الأب حانق برطام . وألمت به الظنة فنفضها عنهُ وقال ، ولكن برعشة من ارتياك : أريد شربة ماء !

فهمهم فارس مقصود بسخرية ذات أنياب : الابريق المعهود أعطاك عمره . حياتك الباقية !

خزّت في قلبه اللهجة المعتة وتعجب من هذا الخلق البغيض . فأي انقلاب طرأ ؟ . . وناءت كتفاه بالخيبة فكاد ينصرف وليس في أعصابه قوة تسعفه في السؤال عن ابنة فارس مقصود . وتوى وجهة على استحداء وتوسله هنيهة من وجوم . إلا ان حيه الخلق أكرههُ على الاستيضاح : وأين ناهدة ؟

وأفلت سؤاله شفتان كاسفتان يحتريج فيهما الأداء الحي . فأجاب فارس مقصود بحدة النقمة : ناهدة تنعم بغفوتها . ما شأنك فيها ؟ . . حذار أن تزعجها بعد اليوم بنظرة !

وانتت لهجة فارس مقصود عنها كل رفق واحترام . فرتاع جميل وأحس دواراً يرين عليه . وتراجع على مصض وانجفل . ولكن أين ناهدة ؟ . . فلا يزال يرجو رؤيتها لاستطلاعها أمر النازلة الشامة الهين ، المكاوية الصميم

وناهدة أمسكت على انجناحها الضيق وليست تجرؤ على كشف الستر . فخفق ضمير جميل الفتي كأن به نهشاً من حمى . وحيا الراعي المكتوم بلهجة الى الحزن حزيناً مساهماً

لا يكاد يلتفت الى قطيعه . فالوساوس اختبطت في ذهنه الامسّ البشوش . بيد ان الراعي لا يبرح على رجاء ، ولكنه رجاء غشته رقاقة من رماد مقيم

وانقضى عليه نهاره وهو يسائل نفسه عما جرى . ورقب المساء بحرقة الظمآن ليدفع خرفانه في طريق الصومعة . بل هو استعجل الموعد فما لاحت ناهدة لناظريه . هناك فارس مقصود وحده يتحفز للنهش كالحية المنقضة . فارتعد جميل وأحسّ قلبهُ يتعصر . وخشي أن تزل به قدمه لفرط الارتباك وأبى ان يلتفت الى فارس يحييه . ولكنها تقاليد القرية . فغمغم وصوته يحرق شفتيه المتنفختين حرداً : مساء الخير !

وهوى في المنحدر لا يرقب جواباً . فردَّ فارس مقصود التحية بزمجرة تنضح بالوعيد . وسمعها الراعي فانتفض غاضباً للكرامة . فالصدمة دامية عمياء سلخت من أساوير الراعي كل زهو وبرح . فنام على جبينه العبوس واستيقظت فيه القسوة . فهو ناقم حتى على نفسه . ينقض عفواً على خرفانه ويهيجها بالعصا من يد لا تلين . وساوره خجل من اخوانه . أيبتذه فارس مقصود وتعفّ عنه ناهدة ؟ ... يا للحضارة الصانعة في القرية الفضوح !

هذا الطريق الملامس الصومعة في نهدته الى مفرق القمة مالت عنه خرفان جميل الباغي الانوف . فشقَّ لها راعيها صعيداً لا يطل على بيت فارس مقصود وقد كره الراعي الفتى مرأى وجار الثعالب الملعيت . بيد انه لا يكاد يبلغ القمة حتى يحتال على نفسه ويجلس القرفصى وراء صخرة تشرف على منوى ناهدة . وما ان تبدو ابنة فارس مقصود على المصطبة أو في حُكرة التوت حتى يتأوه جميل وتندلع أشجانه . فالحب في صدره لا يبرح على وهيج وسعير

وماجت القرية بالنبأ . فارس مقصود أزاح جميلاً وأضحت ناهدة طليقة اليدين . من حق كل طالب ان يلتفت ملياً الى جلوة الطلالة فيها وان يتشهى ويتمنى . فقد لان باب المحراب العتيّ . وفي ساحة القرية أذاع فارس مقصود بنفسه النبأ الصارخ . منزله أضحى على جميل الباغي الحرم المنيع . فليس للراعي أن يدوس منهُ بعد اليوم العتبة . فانتعشت والكلام يلتقي آمال مكبوتة . وحامت على فارس مقصود ابتسامات لم يكن له بها سالف عهد . بيد ان فارس مقصود يريد لابنته سعادة وارفة في عيش جميل . وليس يضمن الطلبة سوى ذي مال ثريّ

وفي القرية ان خمسين لا يبرح أخضر العمامة على حذاء "المولد" هذا سعيد فتاه ، الملقب بالاميركاني ، مضرب المثل في الغنى والوفر . أتاح عن خيرات المكسيك بعد ما ملأ منها وطابه ، ورجع ينفث في أعالي لبنان ظل السنديانة الشموخ . على ان حفنات النضار الثاوية في جرابه السميك لم تنزع من جسده طابع مشتقات الفحرة الكاوية بديه وكتفيه وظهره والمارية قدميه ، ولم تهذب فيه خشونة القطرة وحداء البحيرة . فأقبل كما أدبر . هذا هو بمنطقه

وشحّة وجهله . فكأنهُ لم يبرح القرية الى بلدٍ نبيه

كان يرتدي الثوب الغليظ رقعة في رقعة ، ولا يزال يرتديه على رقاع في رقاع كالمملق الزريّ . رحل وكوخه متصدّع الجدران ، رثّ الاحشاب ، وعاد الى الكوخ نفسه يرقد تحت السقف الاسود الاديم ، النفّاث التراب ، ويزوي في شبه حفرة أضحت أعشاشاً للعناكب والفئران

واكتفى من الرياش بسجادة حمراء فصل لونها وتطاير زغبها ، وبصندوق ضخم حملهُ من أميركا وشحن فيهِ ثيابه وثروته : وما ثيابه ؟ ... رداء أسود اللون عرف الكيّ يوم خياطته مرة واحدة في العمر وقبعة دكناء متراصية الاطراف جرباء ، انتشرت فيها بقع الزيت كأنها من بقايا التلع الكاسدة . وحذاء يحتاج الى نظر حادّ ليبدو انهُ كان لمّاعاً وما عرف منذ شرائه ماسح أحذية

وشاق سعيد غلام الافتران بناهدة وقد رسخ في ضميره ان هذه اللؤلؤة لهذا الطاشر . ومن يلويه عباً وهو يزن ثقلها ذهباً باهر اللمع ، عذب الطنين ؟ ... كفة بكفة . وقد تكون قبضات الذهب أرجح مثقالاً . وربما كان فارس مقصود يفكر في ذلك الرثّ البردة الوارم الكيس ، وهو يعدّ ابنته لغدها . فاجأه سعيد يحدثهُ عنها حتى وهبها له طفاح اليدين

ودعيت ناهدة الى ابداء الخضوع والانحناء . أمة في حضرة المولى ، قارورة بيعت لعطّار . واقتسم سعيد غانم ابتسامة النيه . « السنيورينا » ناهدة باتت ملك يمينه . وكان يستطيب ان يخلع على ناهدة لقب « سنيورينا » . فأين أضاع أيامهُ ؟ ... ألم يكن في بلاد المكسيك ؟

وحنح سعيد الى العجلة في عقد القران . وماذا التأني والامر قد أبرم ؟ ... ثم هو خاف بعد فتون فقود عن الوجد واهوى ان تفوته منهما نهزة في تشميره لها فليسرع في نهش فريسة تطوى بين فكيه ، وليتمتع باللذاذة على مدة ذراعيه . بعد اسبوع سيتزوج . وهدده اموالهُ فليستحضر فارس مقصود الى بيروت وليأت منها بكل ما تطيب نفسه من مأكل ومشرب وثياب . والصندوق المقفل يألف مفتاح ، فسدود الثقوب الطاعة عليه الحشاشة فحجبهُ حتى عن أهداب النور . وسيفتح ابوابه لفارس مقصود رحبة طليقة ، فليكشط عنها الختم وليتصرف ما يشاء

وانحدر معاً الى بيروت وقد ضربا موعداً للزواج . لا يعود الاميركاني من جولة الاستبضاع حتى تؤوب ناهدة اليه وليتحطم قلبها . ولمحت آمنها صندوق سعيد فاه حسير فحلل هدأتها وقلقها . فتوعد شابه وهو يشتمل القلب بالنضار الوهاج . غير ان ناهدة كانت

رى في هذا الوهج برودة دونها الزمهرير وودت الفرار من بليتها. وال اين الفرار وفأس فارس مقصود و نقمته بالمرصاد ؟

ووقع النبأ في مسمع جميل الباغي فكاد يجن . وثار فيه حبه الموتور فاستجار بخجره. لن يتزوج الاميركاني ناهدة ولن تشهد القرية عرساً بل مأتماً تتساقط فيه جثث اربع. يقتل جميل ناهدة وأباها وسعيداً ثم يقتل نفسه . وحقده على فارس مقصود أشد منهُ على الجميع . فاعتزم ان يخنق بيديه فارساً ويسل لسانهُ الخبيث ويفقأ عينيه اللامعتين

الا ان الثورة الجامحة عقبها فتور رشيد . لماذا الجنون ؟ ... أيخضب القرية بالدم لاجل فتاة لا ترتضيه؟ ... وجمع بعضهُ على بعض وارتأى براح منبته بكبده النخرة ومنابع المخولة. بلاد الله واسعة ولا بد أن يجد فيها حفرة يودعها هواه الطليل. وتحامى ان يودع اخوانه . فالخجل يكسفه ، والشماتة تروعه وليس يقوى ان يجابه منها سخرية العيون

أجل، سيرحل . سيتأى الى حيث ينسى. وداعاً أيتها القرية الملأى بالذكريات النضرة. ناهدة ليست عقدة الامل ومبعث الحياة فلن يطيش حتى يسفك الدم لاجل فتاة كل عزها انها على سقاطة من جهارة وزرة من سناء !

الخبز في التنور تلة على تلة . ودق الكبة كالزغاريد كلاها يتوالى . ورقص الدبكة حلقات تلو حلقات . ومزامير القصب تطلع بشجي أنغامها فيثور لحنها القلب الحي . والعرق يملأ الكؤوس . وشرب الانخاب كسيل جحاف : حبا ! — صحتين !

وناهدة على دكة عرسها مثلها على مرتبة نعشها . ورقة خريف صفراء في متناوح الريح . تفكر في ساعة زفافها برعب يطغى على وجهها فيخزيه

وشكت جوارحها الظلم . انها لفضيحة الابد . وانتفض في ضميرها سعي جميل لانقاذها . تراءى لها انهُ سيشق اليها الجموع ويتشلها من أنياب الذئب . ولكن جملاً ناقم حاقد . أيدري انها معلوبة على أمرها وانها ليست ذات رأي في الانفصال عنهُ ؟ ... الانفصال عنه ؟ ... الموت أسبق منهُ الى خاطرها !

ودارت بها غشيان اليأس فهي في ذهول عن نفسها وقد تكون تلك فضلة من معاندة ، بقاضة من ثورة ، الا أن فأس أبيها ترهبها . وهي مع خشيتها الفأس تحاذر أن تستغر أباها الى ما يفضحه في الناس

والعرس في القرية هو العرس . ففي الفرح نشوة للجميع . وعلى مقعد تحلقه الطناقس حملت ناهدة الى بيت بعيد غاية البعد عن القرية بعد الصومعة عنها . فالصومعة في التلة وبيت الاميركاني في السفح . فكأن العرس ازدحف مع الشتيين '

وصبّت قماقم ماء الزهر وماء الورد كرائمها على العروس الغارقة في رزيتها . وأدهى ناهدة أن تكب بقلبها وتظل من الحياة على رمق . فاشتهت الموت وأقامت منه على أهبة . فلن أعيش في كنف من اصطفاه لها أبوها وما خلقت لتعيش فيه . وأطاعت في كل ما دعيت اليه . ودخلت بيت سعيد فاتم وهي في سهوة حجبت عنها كل ما يمثل حولها

ووقف سعيد بباب المربّع يرحب بالأمنية الطالعة . والمربّع لديه أشبه بقاعة العمود في قصر الامير بشير . وله بجانب المربع مسكنٌ آخر هو القبو . ولكنه على مسافة مرموقة . وفي القبو الطبخ والنفخ والخدمة . وان يكن المربّع الاسود الاديم ، الرثّ الاخشاب ، لا يليق بعرس مشرق الصفحة ، فالقبو يكاد يكون في حقارته زرية للخنازير

وانصرفت القرية عن العرس في مغروق العتمة . وخلا المربّع لسعيد وناهدة ، للعروسين . دبّ حيال مهاد . وأقامت حفنة من النساء في القبو حول والدة ناهدة عاكفات على طعام البكارة يعددنه بغبطة وعناية . ودنا سعيد من عروسه مثله من متعة أكتراها . هذا أوان الندى . وامتدت يد الاميركاني الى معصم أبنة فارس مقصود ، فاستيقظت ناهدة من ونيتها كأن حشرة لسبتها ونفضت عنها اللمسة وهي تقول برهبة ! دعني ، لا تمددْ إليَّ يداً !

فاقتعم القسامة تم على ازدراء وقال : خففي عنكِ . لماذا المانعة ؟ . . . أصبحت لي . والعناد بات لا يجدي ! وشاء أن يضمها اليه . فأفلتت منه وهي تصيح به : مكانك . أسأت الاختيار في اقترانك بي . أشقيت وشقيت !

فتعجب من منطقها الجافي ، ووثب عليها يمسك بغدائر شعرها ويجذبها الى صدره بعنف وهو يقول : أتماحكين ؟ . . ولكني اشتريتك غالي . اذا أبيت الطاعة على رضى امتثلت على كره . لا يغرنك مني الشيب . فلا أبرح بقوة الشباب . تعالي !

وجرّها الى السرير وقد بدلع من عنبيه أشر السلطان . فهالها موقفه وتولاها ذعر جائح . واجتهدت في الافلات منه وانفصالها عنها . فرفعها بين يديه بقسوة وضرب بها السرير قائلاً بحنق : عنادك يكلفك حياتك أطيعي وإلاّ حملت من عرسك مأتمك . أوّل الطريق ولا كلفة أتسمعين ؟

فهوت يدها الى صدرها . وتناولت منه منديلها وقد عقدت طرفه على مسحوق أغبر . وحلت العقدة في ما دون اللحظة ونفضت في فمها المسحوق بخفة وابتلعته في غمة خائفة والاميركاني واقف حيالها هادئاً حائراً في ما تصنع . فصاحت به وقد ومض الظفر في عينيها : لن تنال مني منالاً . لست أريدك . هذا منقذي منك أعددته ليوم خلاصي !

وتعالت ضربها . فأدرك انها تناولت سمّاً . وانقض عليها يمسك بحنافيها ويكرهها على

القيء . فليس يريدها للموت بعد طول علالة . واذا الشباك السقيم ، النابي به وسادهُ ، الظل على دوّارة التوت ، يتطاير كأن عاصفة تقتلعه . فالتفت سعيد فاتم وناهدة بأعين جاحظة . وملكهما الرعب وقد أبصرا جميلاً يثب عليهما شاهراً خنجره . غير ان نائلة لم تلبث أن استطابت المفاجأة وبها يلتمع خلاصها . فلم يرمقها جميل الباغي بنظرة . كان سعيداً هدفهُ الأوحد . فطفر اليهِ يصبح بحقد ذميم ، نائيء العين : يدك عنها أيها المطيح !

ففتح سعيد فه رعباً وتراخت يده عن عنق ناهدة . ووقف مشدوهاً كالمصاب بالشلل وقد عُدم النطق والحركة . وعبث به خنجر جميل الباغي فشك في قلبهِ لا يفسح له في شهقة . فهوى في الارض وفهُ على فتحة الذعر ووجهه على كدة الخيبة

ولم يحفل جميل بالجثة الهامدة ، ولا كلف نفسهُ انتزاع الخنجر من مثواه ، بل مال على ناهدة يقول بحماسة التسعر وعجلة المتقي : انهضي . انقذتك منهُ وأنقذت نفسي . جئت لاقتلكما معاً قبل هجرتي ، إلاّ أني أيقنت ، وقد سمعت من وراء النافذة بعض حديثكما ، ولاح لي موقفهُ منك ، انك مغلوبة فيهِ على أمرك . انهضي ولنرحل معاً . غداً نركب البحر الى العالم الجديد !

والى أين ترحل وقد تناولت طعم الفأر سمّاً تخلع به عنها عبء الحياة ؟ ... فالموت على أثلة منها . وباتت لا ترجو وهي على يقين من منيتها إلاّ أن تنقذ من تهوى من شر العقاب . وشاقتها التضحية فانغمست فيها . وتكاثمت النقمة تحبه بها جميلاً وتكرههُ على الفرار . فصاحت به وكل ما فيها على رجفان : أتقتل زوجي وتريدني على اللحاق بك ؟ . . . ارحل ، لا تقف لحظة واحدة على مرأى مني والاّ ملأت القرية صراخاً للقبض عليك !

ومشت الى الباب تتظاهر برغبتها في فتحه وطرح الصوت . فارتاع جميل أمام ما يلوح له منها وأعول : ماذا تفعلين ؟

— ماذا أفعل ؟ . . . أتلطخ يديك بدم زوجي وتفرض عليّ السكوت عنك ؟

فهاله تناقضها . كانت تكره سعيداً كنفسها من حياة فآثرها تغار عليه جثة بلا روح . وارتعش جميل الباغي تجاه عزمها على الايثار لزوجها المطرح بدمه . وتراجع خائفاً مضطرباً والجثة المبسوطة أمامه على مدها تزيد في رعبه . فأشارت ناهدة الى النافذة المحطمة وهي لا تبرح في صياح ياقم : ارحم نفسك واركن الى الفرار . الى الفرار والاّ دعوت القرية الى ذحلك !

فامتثل كالعبد المهين وتوارى ذليلاً كالجبان لا يجرؤ حتى على الالتفات الى الوراء وقد انتزعت منه ناهدة بانفلاتها عليه صلابته وهدمت بأسه . وتسلل الليل وأشاح بنساء القرية ترف في عينيه ، وتهديد ناهدة ينقض في عروقه . وكلما تقدم جميل اليه ان وقع الاقدام

يقترب منه ، وان الجميع جادون في أثره . وتمثل الحديد بعض ساعديه ، والسجن يغلق عليه أبوابه ، والشماتة والسخط يهويان عليه دراكاً . فدهمهُ الروع ، وحث على النجاة خطاه المرتجفة . وتولته كسفة الندم . فهو قاتل مجرم . ولكنه وقد سفك الدم لماذا قتل سعيداً ولم يقتل فارس مقصود ؟ . . . فارس هو الاثيم . ليتهُ أودى به !

ووقفت ناهدة الى النافذة تنظر اليهِ في فراره وأبهجها انقاذه من هول ما يرقبهُ . فالجريمة ليست في دمهِ وقد حل عليها . هواه المقتول أهاب به الى الانتقام ممن سحقوا لهُ

وآثرت ابنة فارس مقصود وقوع خنجره في صدرها على اجتياحهِ قلب سعيد فاتم . فاذنب سعيد ؟ . . . وتماسكت على فتكة السم مجالدة على الالم الناهش لا تبيح لفمها أنة . فتتلوّى والسم يمزق أحشاءها كأنهُ بأجمعه أنياب قاضمة . وما أذنت في صيحاتها المواكي الا وقد تلاشى هناك ، في غابة البلوط وقع خطوات جميل في مسمعها . فأيقنت أنه بات بأمن من عبث الناتبات وأطلت بجهد يثلث منها خشب النافذة الى وسادهِ اخفاءً لاثر الدمة ، وهزت الليل في رقدتهِ الهانئة تبثهُ بليغ شجاها

وأعولت في الصراخ العصبة . وترا كضت النساء المتكفات في القبر على الطعام هالمات وقد تعالى منهنَّ الصياح والاستيضاح . فدبت ناهدة الى الباب تفتحهُ وليست تملك القوة على الاداء . وا كنفت بأن تشير الى الجثة والطرحت في الارض تختلج وتتقصف كالحية على النار

ولاحت الجثة للنسوة وقد غارت في كبدها نصلة الخنجر ، فاد بهنَّ الذعر ولطمنَّ ولولتهنَّ وجه القرية الهاجدة . وبين مزدحم الناكب وحرمة العيون الجاحظة استطاعت ناهدة ان تغالب لسانها على القول : سعيد فاتم أكرهني على ما لا تشتهي نفسي . وهددني بخنجره يروم القضاء عليَّ . فانتزعتُ من يده الخنجر وأغمدتهُ في قلبهِ . وتناولت السم أنني به الخلاص من حياة قنوط !

ورشقت عيناها والدها فارس مقصود بنبعة الناجعة . واستلها الموت بعد طول تعذيب لا يبالي فيها العقاقير . فرجت القرية حيال ما ترى وما تسمع منكرة ما ترى وما تسمع . وساورها حزن قلق يطغى عليهِ الشك فلا يستقر على يقين

خمسة عشر عاماً تغلغل في غابر الزمن . وإذا القرية تستيقظ على براح ضحٍ في مقارها . ضحٍ وليس بضحٍ . فالايام نسجت له من شعرهِ الكمن ، الا ان أعصابهُ دحست فيهِ مزاعم أيامهِ . هذا جميل الباغي يقده وحده . تعاوحت في أذنيهِ : وهو في العالم الجديد . نصيحة باهدة لاحيهِ ، فأصيل تحت عبء أوزاره يبدو الريبة عن الاخلاص المصفى . ويحير الهيبة عن السر المكنون !

بيروت